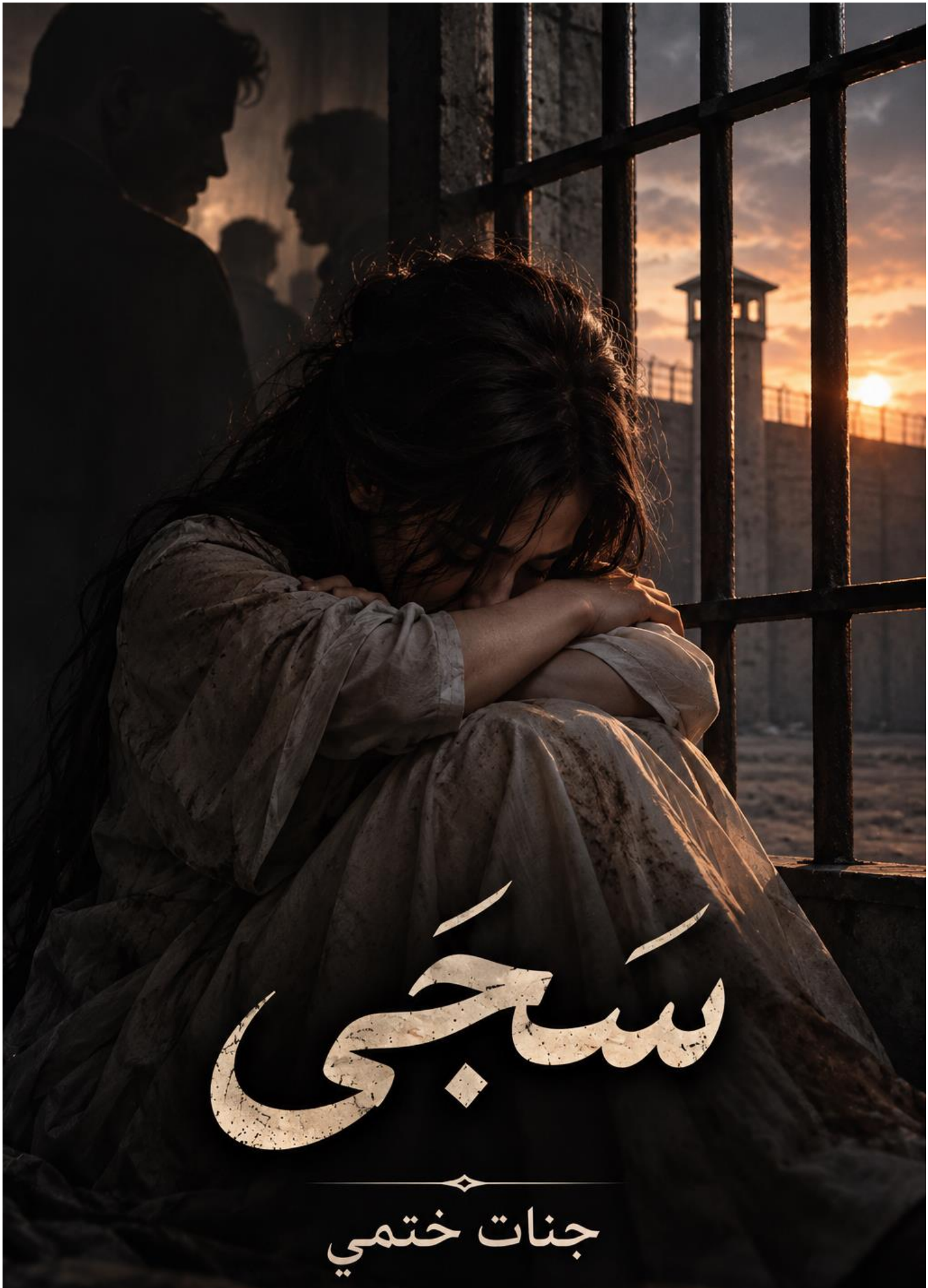

سَجَى
جنات ختمي

إهداء إلى أمي:

صغتُ من الكلماتِ أجمَلَها لأهدِيَكِ
وصفاً، غيرَ أنّ عباراتي انسحبتْ
أمامَ مقامِكِ العالي.. فأمي أعظمُ
من أن تَصِفَها قَفِيةٌ أو كتاب.

إكتشفت أني مجرد سراب في بحر ذاكرتك، أنفيتني من قصر هواك، أجبرتني على نسيانك فلا تلمني، إن العشق غلاب. بربك أجبني: ألم ترأف بقلبي الذي سال دماً ليروي حباً مات من قهر الرجال؟ ألم ترأف بعيوني التي فاضت دمعاً من غدر الأوغاد؟

مع نار ترقص منتشية على ألحان الحزن، أكتب لكم بحبر سال من ماضٍ مر. أعزائي القراء، أنا لا أكتب لكم، أنا أدفن أسراري أمام أعينكم. أتمنى لو كان بين قرائي يتأمل أوراق كتابي؛ حينذاك سيعلم أنه كان ولا يزال سيد أفكاري. سيدرك أني أتغذى على ذكرياتنا، على غدرك وخيانتك لي. ستعلم حجم جرحك وماذا فعلت أفعالك بقلبي الذي أهديته لك لأريك وفائي، فتجعلني أبكي عليه وهو رماد...

إلى العابرين في عتمة الذاكرة

شارِدةً بين ماضٍ باهتٍ
وحاضرٍ تائه، قاطعني أحد
زبائننا الأوغاد عذرا أعني
الكرام يسألني عن آخر موديل
للسيارات الفارهة،طبعاً نحن
نعلم أنها لإحدى عشيقاته
الفاتنات. كم أكره رجال اليوم!
يظنون أن أموالهم قادرة على
إخضاع قلب أي فتاة في هذا
الزمان،كم أتمنى أن أقتل

واحداً تلو الآخر بعد تعذيب طويل، فأنا لست غبية لدرجة أن أهديهم موتةً رحيمة!

مهلاً مهلاً، أظنني تماديت قليلاً.. لربما عدم وجود رجل في حياتي منذ طفولتي جعلني أشعر بعدم أهميتهم، فالمرأة اليوم قادرة على عيش حياة كريمة بدونهم أو ..مع القليل منهم.

والآن لنعد إلى العمل مر اليوم سريعاً، فعادة ما يقلّ الزبناء لغلاء سلعتنا، فليس الجميع قادراً على شراء سيارة فاخرة، لذلك فتعاملنا مع أشخاص معدودين على رؤوس الأصابع. في بعض الأحيان أحسدهم على ثرائهم الفاحش، لكن عندما أستمع لمشاكلهم وأواسي أحزانهم تارة، حينذاك أدرك أن الحياة عادلة كما أخبرتني إيناس،

وهي إحدى الأشخاص الذين أتعامل معهم تقريباً كل سنة.

راودني الفضول لمعرفة حكايتها، قصتها وربما مأساتها. عاماً بعد عام أصبحتُ أقرب لقلبها لتخبرني عن حياتها الخاصة، فبالرغم من كونها من عائلة مرموقة، ولديها الشهادات وكل ما تتمناه أي فتاة شابة، إلا أنها لم تجد السعادة، فقد زارت عدة أطباء نفسيين بعد

محاولات انتحار. علاوة على ذلك، جمالها السالب للأنظار لم يكن شفيعاً لزوج صالح يضفي لمسة الحب لحياتها.

سمعت كثيراً أن لا حظ للجميلات، لكن لم أتصور قط أن يكون الحظ حسوداً لهذه الدرجة من الجمال.

لم تتوقف قصتها هنا، فقد دفعتها ثروتها لشراء رجل، أو الحب بصيغة النساء؛ فكل ما نبحث عنه حب نقي عفيف

نستند عليه في معركة الحياة، لتصبح بعد ذلك عرضة للاستغلال بلا حب، وبلا رجل، والخطير: بلا روح لمواصلة البقاء.

كل ما سمعته ورأيته، أذكّر نفسي بأني إنسانة محظوظة وسط هذا العالم الموحش الذي يقذف الشخص في ظلمات الهلاك؛ فلكل واحد منا قصة يرويها تضحكنا أحياناً وتبكينا كثيراً. لا يوجد أحد بوجع

خفيف والآخر بألم كبير، إنما هي قلوب لا نستطيع إقناعها بسخافة الوجع.

الحرارة اليوم من شدتها تحسبها ساكنة فوق رأسك مباشرة، والغريب أنها لا زالت السابعة صباحاً، والذي يزيد الطين بلة تلك المسافة بين بيتنا وموقع عملي. أما الآن سآخذ من وقتكم قليلاً لتتعرفوا عليّ، فأنا أعلم أنكم متشوقون لمعرفة كاتبتكم المشهورة

التي تحبونها. كم أنا معجبة بتواضعي!

حسناً فلنبدأ: اسمي سَجَى، فقد سمتني أمي هذا الاسم لشدة ترديدها وحبها لسورة الضحى أثناء فترة حملي بها: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾. كما قالت لي، كانت تشعر أن هذه السورة تواسيها وتحمل رسالة لي في آياتها. ستعلمون الآية عندما أخبركم أن أبي مات قبل ولادتي،

فتماماً تلك هي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

عندما كبرت ووعيت حجم الألم الذي رافقني كطيفي منذ ولادتي، بكيت كثيراً وتعلمت أكثر ،سأختصر شعوري في جملة، فلا أحب أن أعكر مزاجكم من أول تعارف بيننا. حياتي بلا أب كشخص وسط غرفة مظلمة يتحتم عليه الوقوف عمره كله دون الحق في الاستناد على شيء،

تصبح هشيساً أمام عرقلة الحياة، والغريب كلما أطاحت بك المواقف تنهار حداداً على ما فات.

هكذا شعرتُ قبل أن تتضح لي الحقيقة التي كانت نوعاً ما ملاذاً آمناً لي رغم ألم الموقف، فقد اكتشفتُ بعدما أصبحتُ فتاةً ناضجةً كفاية لحمل حزن أكثر من الأول، أن أبي رحمه الله قبل وفاته لم يكن يريدني قط، وقد انفصل

عن أمي قبل ولادتي. ولبخل القدر، لم يترك لي صورة واحدة أتمعن ملامحه، أتكئ عليها تارة وأتفاخر بها تارة أخرى، أو حتى ملابسه لأشم رائحته، أنام في حضن طيفه مترجية لقاءه في منام يجمعنا، فأوبخه على ما ترك من جراح.. لكن عجباً لدنيا تفتك بقلب صغيرة، وتحرمها الحق حتى من أبسط الذكريات!

جعلتها تردد: لعل موته خيرٌ لها وهذه مشيئة الأقدار، فلا حق لنا أن نتحسر على ما اختاره الله لنا، فهو وحده تعالى يرى الحقيقة كاملة.

كانت هذه الفكرة تهدئ نار الحرقة في قلبي.. حرقة الوداع قبل اللقاء بأبي.

ها هي 24 عاماً مرت، أكملتُ دراستي وحصلتُ على الإجازة، وأنا أتمعن في تلك النظرة ولمعة الحب التي

طالما حملتها أمي تجاهي.
لربما سُلبتُ حب الأب، لكنني
عُوّضتُ أضعافاً من أمي. وكما
تعرفون لا بد من عمل بعد
تخرجي لعلي أعوضها القليل
مما فات، فمهما فعلنا نظل
مدينين لهم بأرواحنا.

واليوم مرت ثلاث سنين على
أول يوم لي في عملي؛ لا زلتُ
أتذكره، كنتُ خائفةً من فتح
بوابة عالم الأعمال
والمسؤولية، من دخول جولة

أخرى مع صراعات الحياة أو من خطو خطوة للأمام، لكن العمر لا يعطي فرصة لتتأقلم، يجبرك أولاً ثم تصبح بعد ذلك مسؤولاً: إما أن تخلق سعادةً في محيطك، وإما أن تجلس مكتئباً على نصيبك.

يمر الوقت سريعاً منتزعاً منا أسعد اللحظات، لا يأبه بدموعك، رغباتك، ولا حتى بنقاش على ما فات.

في صباحٍ باكر مع نسمات الهواء التي تمر على جسدك كأنما ترغمك على الاستيقاظ بكل حنان، وصوت أمي الذي يمكنك سماعه على بعد أميال، استأذنت بكل لطف وقالت:

— هيا حبيبتي، استيقظي الآن لنفطر معاً بلا عجلة مثل كل الأيام.

صراحة معها حق، ففي أغلب الأحيان لا يسعني الوقت لأحظى بصباح هادئ مع

فطور مثل كل الناس، لا بد أن أستعجل لأصل في الوقت، فأنا شخص بالرغم من أني لا أستيقظ بكوراً، إلا أنني أعشق تلك الأجواء الصباحية، كأنما الأرض تهمس لك بأنك سيد المكان، وستحظى بحياة زاهرة، فوحدهم الناجحون الذين يقدرون نعمة الصباح.

أجبتها بعين مفتوحة وأخرى لا تزال تتذكر مضجعها:

ـــ حسناً أمي، فقط نصف ساعة أخرى.

ـــ سججى

_ 10 دقائق!

_سججججى ، انهضي

ـــ حسناً حسناً، أنا آتية.

ـــ لا يليق بك اللطف! لا تنسي أن تفتحي النافذة واتركي الباب مفتوحاً كي يدخل الهواء.

ـــ حسناً أمي، كما تريدين.

نهضتُ وكأن نصفي الآخر في العالم الموازي سرير، لا أقوى على تركه. لبستُ اليوم فستاناً أحمر، أحببتُ أن أعتني بنفسي قليلاً، فقد أهملتُ نفسي في الآونة الأخيرة حتى أمي لاحظت ذلك. رتبتُ نفسي مع تسريحة أردتُ تطبيقها من مشاهدة فيديو، وطبعاً لم أفلح في ذلك، لذا تركته منسدلاً على أكتفي بالرغم من أنه يتعبني قليلاً.

وحمداً لله لم أستعجل وحظيتُ بوقتٍ رفقة أمي، فما أجمل تلك اللحظات التي نقضيها مع أعز أحبابنا! ولو كان بمقدورنا لغرسنا اللحظات في عقولنا، نعيدها ألف مرة بلا ملل ولا كلل.

توجهتُ لعملي مع أنظار تلاحقني من الجميع؛ كم أحببتُ أن أكون محط إعجاب، وربما كان هذا سبباً واضحاً في توظيفي! عندما ولجتُ لمكتبي، لاحظتُ أنس شارداً

والجو معكر قليلاً، لم أعرف السبب ولم يراودني الفضول لذلك. مؤخراً أردتُ أن أسترجع صحتي ونفسيتي، فقد كنتُ أجهد نفسي كثيراً في أمور الشغل حتى أصبحتُ أتناول الدواء ليهدئني؛ فأحياناً ننسى أنفسنا بين طرقات الحياة ونمضي جسداً بلا روح، وعندما نتذكر ندرك أنه قد فات الأوان.

لذا انشغلتُ بأعمالي، وعندما استرجع أنس شتات أمره لاحظ مجيئي، وأقبل عليّ مع كوب من القهوة والقليل من البسكويت المغطى بالكراميل كما يعجبني. كم أحب تعامله معي! فهو في مقام أخي، لكن له رأي آخر؛ فكما يعرف الجميع، لا يمكن لتلك النظرات والتصرفات وأحياناً التضحيات أن تكون من مجرد صديق يقدس العلاقات، فالوحيد الذي يمكن أن

يتصرف بتلك الطريقة هو عاشق. أما أنا فأحب أن أتغابى قليلاً، ليس زهداً في عشقه، بل لأنني لا أود أن أخسره؛ أريده صديقاً ليس أكثر.

تبادلنا أطراف الحديث عن آخر أخبار العمل، وكم كان تصرف المدير فظاً معهم.. لم يكونوا على وفاق لفترة طويلة، لا نعرف تحديداً السبب وراء هذه العداوة،

لكننا تأقلمنا. وسط حديثنا سكت فجأة وظل يحدق في عينيّ حتى أربكني!
سألته بتعجب:
ـــ ما الذي حل بك؟ هل أنت بخير؟

قال لي وهو لا يزال يحدق بنفس الطريقة بصوت أكثر هدوءاً:
ـــ لم أخبركِ من قبل كم أنتِ جميلة..

تجمدتُ بعد تلك الجملة؛
فبالرغم من كل شيء كانت
بيننا حدود!
أجبته بصوت صارم وأكثر
حدة:
ـــ شكراً لك، والآن اعذرني
يجب أن أُجري اتصالا، فأنت
تعلم أهمية هذا الزبون.
ثم انصرفتُ ليمسك بيدي
قائلاً:
ـــ هل أزعجتكِ؟
أجبتُ:
ـــ لا، لا عليك.

ثم ذهبتُ وأنا أعلم أنه لا يزال يحدق بي، لكنني لم ألتفت؛ فمن الصعب أن تخسر صداقة دائمة لمجرد حب مؤقت، فدائماً ما يأتي الانفصال على شكل عشقٍ يفرق الأصدقاء بدم بارد مهما طالت بينهم السنوات.

عشية ذلك اليوم، انشغل تفكيري بأنس، تحديداً نظراته؛ لأول مرة لاحظتُ شيئاً مختلفاً، شيئاً لم ألتفت له من قبل أو ربما استبعدته،

فتلك النظرات كانت توحي بشيء واحد فقط، وهي نظرة شهوة.. نعم! فللوهلة الأولى وجدتُ حباً عفيفاً نقياً، لكن ربما لم يكن كذلك، فأنا التي أوهمتُ نفسي وأقنعتها بأنه صديق، والأصدقاء لا يريدون إلا الخير، لكن فعلاً الحب خادع، فقط يختار بلا سابق إنذار من لم يكن بالحسبان. أفاقني من شرودي اتصاله المفاجئ، ترددتُ قليلاً وحثثتُ نفسي: إن لم يكن هناك رد

فعل مني لن يطول الأمر أكثر من ذلك. انقطع الاتصال، فوجدتُ أنفاسي هادئة تلقائياً، ليعاود الاتصال مجدداً.
قلتُ بصوت مسموع كأني أهدئ أعصابي:
ـــ لا عليكِ يا سجى، فهي مجرد نظرات وهذا كله من نسج خيالك، فالرجل لم يتكلم معكِ قط بقلة أدب، أجيبيه فربما يكون اتصاله حول الشغل.
ثم أردفتُ قائلة بتعجّب:

ـــــ فلا تحسبي نفسكِ محور الكون والكل ملعون بعشقكِ!

ضغطتُ على زر الإجاب لأسمع صوته متقطعاً كأنه أفاق من غيبوبة ويسأل عما حدث، لم أسمع ما يقوله، كان كلامه مبهماً وصوته لا يبشر بالخير، إلا أن أذني أمسكت كلمتين كفيلتين لأعلم ماذا حل به:

ـــ أمي ماتت يا سجى..
لم أفكر كثيراً، أخبرتُ أمي بما حل به وأنا أرتدي معطفي،أصرت أمي على الذهاب معي، فقد حل منتصف الليل والطريق وعرٌ من كلاب حيوانية وأخرى آدمية.
لم أسمح لها بالذهاب، فعلى كل حال لا زلتُ شابةً أُدبّر أمري، لكنني خفتُ على أمي وأجبتها مطمئنة:
ـــ لا تقلقي، لا زال الشارع مكتظاً، ولا أريد أن أتأخر

عليه أكثر من ذلك، هو بحاجة لي.. ادعي معه يا أمي.
وقبلتُ يدها ودعواتها ترافقني.
نزلتُ مسرعةً وأنا ألوم نفسي، لا أعرف ما علاقة هذا بموضوعي إلا أني أحسستُ بتأنيب الضمير قليلاً. وصلتُ لبيته، لكن البيت مظلم وليس عليه جو جنازة، فلم أسمع بكاءً أو حتى أثراً لزيارة الناس. اتصلتُ به فلم يجب، مما زاد ريبتي! هل ما سمعته

خطأ؟ لا يمكن، أقسم أني سمعتها جيداً، فلا يمكن أن أتخيلها دون الكلمات.
لم أجد شخصاً واحداً أسأله، فتبادر إلى ذهني أنه في المستشفى. وقفتُ قرابة نصف ساعة أمام العمارة، فلا يمكنني النوم الليلة بدون إجابة، حتى كثرت اتصالات أمي فقررتُ أن أذهب، لكن عندما رفعتُ عيني وجدتُ ضوء البيت أُشعل! دفعني الفضول لأتفقد الشقة، فربما

شقيقه الصغير "جندب" لا يزال هناك وهو خائف.
كان الباب مواربـاً، دخلتُ الشقة بخطوات بطيئة وأنا أردد:
ـــ أنس، هل أنت هنا؟
جندب، هل تسمعني؟ أنا سجى، لا تخف يا عزيزي..
وعندما ابتعدتُ بضع خطوات عن باب الشقة سمعته يُقفل!
تجمدت أطرافي، ولم أقو على الالتفات! هل يمكن أنني أخطأتُ الشقة؟ يا لحماقتي،

كيف أدخل بلا إذن؟ صحيح أنني جئتُ من قبل مرةً في عيد ميلاده مع زملائي في الشغل، وحسبتها كفيلة لأتذكر شقته.. يا لغبائي!

مر ألف حوار في رأسي وكل ما كان عليّ فعلِهِ هو الالتفات، ليأتيني صوته كصاعقة.. لقد كان أنس!

التفتُ متعجبةً وألف سؤال يطرق باب أفكاري ـــ أو يحطمها بصيغة أفضل ـــ وقلتُ له:

ـــ أنس، هل كل شيء بخير؟ أمك بخير؟ أين هي؟ لقد أفزعتني!

وكانت عبائتي وشعري المتشابك كفيلين لإخباره بذلك.
أجابني وعيناه تخشيان الالتقاء بعينيّ:
ـــ أنا آسف.. حقاً آسف.
حتى الآن لم أفهم ما الذي يحدث؛ هل هي مفاجأة؟ هل سيظهر الجميع من العدم ليرددوا 'عيد ميلاد سعيد'
حتى وإن لم يكن اليوم عيد ميلادي؟ لكن ماذا سأفعل؟
تركتُ عقلي يرتجل، لم أنطق

بكلمة واحدة كأن الحروف
أضلت طريقها!
أردف وهو يقترب ببطء
مرعب كأنه ذئب سينقض
على فريسته:
ـــــ أنتِ تعلمين كم أحبكِ،
الجميع يعرف ذلك.. لكن لماذا
لم تعيري مشاعري اهتماماً؟
لم أتمالك نفسي عندما أتيتِ
اليوم بذلك الفستان، وددتُ أن
أقتل كل من تجرأ وحدق إليكِ،
حتى ذلك اللعين الذي يسمي
نفسه مديراً معجبٌ بكِ!

أرغمتُ نفسي على البقاء لأكون معكِ، ودَفَعْتُ كبريائي ثمناً لبقائي معكِ.
قال جملته الأخيرة وهو يهز كتفيّ ودموعه تسيل. لم أعلم أن الأمر متطور لهذه الدرجة، فكل ما ظننته أنه عشق ككل العشاق، لكن تيقنتُ اليوم أنه مريض نفسي، أو ـــ بلا تواضع ـــ مريض بي!
راودني الخوف وسرت في جسمي قشعريرة عندما همس لي:

ـــــ حاولتُ أن أنساكِ وأتشافى من حبكِ الفتاك، حاولتُ أن أداوي جروحي بعيداً عن معشوقي، لكن لا سلطة على قلب عاشقٍ مباحٍ له العصيان.. آسفٌ يا سجى على ما فعلتُ وما سأفعله لأبقيكِ غصباً عنكِ بجواري!
انقض عليّ كوحش هائج لعابه يسيل، متعطش، متلهف، ودواؤه شرف فتاة.. خارت قواي، لا أعلم ماذا حل بي، أمي تتصل وأسمع هاتفي كـ

لحنِ موتٍ يرقص على
أحزاني، فسالت دمعة تستنجد
بالأعوان.
لمحتُ بصيص أمل في
مزهرية، لكن من منظوري
كانت أملاً تناديني: اقتربي
لتتحرري من غدر الرجال! لم
أتردد، استنجدتُ بقواي
وركضتُ بكل ما أوتيت،
ضربته ضربةً ثم شفعتها
بأخرى.. خر صريعاً ودماؤه
تفيض كراية بيضاء تعلن
نهاية المأساة، أو بداية لرعب

جديد لا أقوى على
استحماله."
أمعنتُ النظر في ما ارتكبت
يداي، غاب عقلي وترك
عيوني تبصر ما لا يقوى أي
أحد على رؤيته. أخذتُ
المفتاح من بنطاله وهربتُ
خفية، وعندما تيقنتُ بعدم
وجود أحد ركضتُ كأني أود
أن أهرب من نفسي، من تلك
اللحظة أو من الزمان
والمكان. لا أعلم حتى ما حل
به، هل مات أم سيغيب لبضع

سويعات؟ لا أقوى حتى على نطقها! كيف أخبرهم أني أنا التي قتلته وهو الذي كاد يسلب مني شرفي لأعيش ميتة طوال الحياة؟ لم يترأف بعيوني التي سالت دماً، أما دموعي فلن تفي بالغرض.
وسط الشتات تذكرتُ أمي، فلا مفر من ألمي وخطئي إلا حضن دافئ يطبطب على ما فات. وجدتها تنتظرني وقلبها منفطر، لا تعلم ماذا فعلت أزقة الدنيا بقلب ابنتها.. ضمتني

وكأنها على دراية بما حصل، أخبرتها عيوني، أما أنا فلا أقوى حتى على الكلام؛ انهرت كجثة ميتة انتهى من وقت طويل دورها في الحياة.
أفقتُ في الصباح وأنا أحدق في سقف الغرفة، والليلة المشؤومة تتجسد لي في كل مكان. نامت أمي بجانبي، شعرتُ بها واستمعتُ طوال الليل لدعائها واستنجادها برب العباد. أردتُ فقط إخبارها، لكن أقسم أن الكلمات

تلاشت والأحرف انعدمت!
عندما أحست باستيقاظي
قبلتني وقالت ـــ ولا أعلم إن
كان بصوتها أم بأنين قلبها
ـــ:
ـــ سجى، الحمد لله عدتِ
بخير.. أنا لا أريد منكِ جواباً،
مهما كان خطؤكِ أو مشيئة
الأقدار، سأتركِ ترتاحين،
وعندما تستعيدين قوتكِ أنا
بانتظاركِ في كل الأوقات.

صراحة طمأنتني بكلامها، لكن
لا بد من إخبارها الحقيقة؛
فأحياناً تكون الحقيقة ثقيلة
على قلوبنا، فما بالك بإخبار
أحد بها! جاهدتُ نفسي
لأنهض من فراشي، لكن كأن
روحي أثقلت جسدي فأبى
الوقوف.. لا أعلم إن كانت
روحي أم ألمي، فكلاهما
ثقيلان عليّ الآن.
بينما ظلت إشعارات هاتفي
تتردد بين الفينة والأخرى
وسط صمت البيت، مع صوت

دعاء أمي الذي كان يأتيني
على شكل همسات يربط على
قلبي وأنا غارقة بين هدوء
الجو وضجيج القلب.. دق
جرس البيت! انتفضتُ من
مكاني كأنما روحي غادرت،
فظل جسدي خفيفاً على عكس
ما فات. كنتُ أعلم أن تلك
اللحظة ستحين، انكمشتُ على
نفسي كأني بذلك سأصير
خفية عن أعينهم فلا
يبصرونني، فأنا لا أجرؤ على

مواجهة نوع الحياة التي تنتظرني.
كيف لهذه الدنيا أن تنقلب بهذه السرعة؟ وما ذنبي في كل هذا؟ فأنا مجرد ضحية لرجل فقد صوابه وسط سيناريوهاتي انتشلني صوت أمي في الأرجاء لأستوعب بعد حين أنها بجانبي تنادي عليّ، فرغم أني قريبة إلا أن العقل قطع أميالاً. وضعت كَفَّها على وجنتيّ، في حين أن لساني ظل يردد:

ـــــ لا أريد أن أذهب معهم!
أقسم لكِ أني لم أقتله عن
قصد، فقد كان الخيار أصعب:
إما حياته .. أو أن يتلوث
شرفي بقذارة أفعاله! لا، لن
أذهب معهم!
وانهارت بين حضنها فظلت
تهدئني. ولو أعطيتُ لسمعي
فرصة لأدركتُ أنه المدير أتى
لزيارتي، فمنذ بدء عملي لم
أتغيب يوماً، لذا جاء يسأل عن
حالي؛ رحبت به أمي وأخبرته
أنه تم استدعائي لإحدى

المسائل القانونية بخصوص الإرث، وقد ذهبتُ قرابة ثلاثة أيام. فهمتُ أنها استبعدت وجودي بالمدينة في ذلك اليوم المشؤوم، ثم أردفت قائلة:
ـــ من المحتمل أن تستقيل من العمل وتستقر نهائياً هناك.
اطمأننتُ لأنها أزاحت عني هماً كبيراً، لكن عندما أفقتُ بنفسي تداركتُ أن أمي لم تعلق على اعترافي! سألتها بوضوح:

ـــــ كيف علمتِ بفعلتي؟
قالت لي والدموع سبقتها للإجابة:
ـــــ عندما ذهبتِ أحسستُ بانقباضة في صدري، لم أرد أن أرغمكِ على البقاء فأنا أعلم عنادكِ.. وعندما طال الوقت وليس باليد حيلة، أفرشتُ سجادتي ورافقتكِ بدعائي، وعندما وصلتِ لمحتُ الدم على قميصكِ، فعلمتُ أن المقابل كان شيئاً ثميناً على فتاة..

استرجعتُ ذاكرتي لأعلم أن الدم طُبع عندما أخذتُ منه المفتاح وروحه في آن واحد! قالت لي عندها إننا سنغادر المدينة عشية اليوم بعيداً عن الجميع. كنتُ على وشك الحديث لكنها منعتني قائلة:
ـــ أعلم جيداً ما تفكرين فيه، لن نسمي هذا هروباً، هو مجرد استعداد.. فالروح عزيزة يا بنيتي.
وبالفعل بادرتُ بأخذ ما هو ضروري، وعقلي مشغول

طوال الوقت بما ينتظرني، لكن في آخر المطاف تركتُ أمري لله، فهو الواحد القادر على فك كربتي، أما أنا فلا حول لي ولا قوة.

أخذتُ حماماً ساخناً لأهدئ عقلي من تزاحم الأفكار، وعندما خرجتُ لمحتُ فستاني الأحمر الذي كنتُ أرتديه صباح ذلك اليوم.. لم أتمالك نفسي إلا وأنا أمزقه وأبكي بصوت مسموع، مما دفع أمي لتتفقدني وتهدئ من روعي.

لقد راودتني نوبات الهلع
كثيراً في الآونة الأخيرة.
أخذت الفستان من بين يديّ
على مهل قائلة:
— لا تزعلي يا حبيبتي،
سأتخلص منه حالاً..
حقيقة أنا لا أتحمل رؤية أمي
تعاني بسببي، فقد عانت معي
كثيراً. لمتُ نفسي على ما آلت
إليه الأمور، فربما كنتُ سبباً
ولو غير مباشر، إلا أن
ملابسي كانت دافعاً لردة فعله.
كنتُ مقتنعةً أن تلك الملابس

الجريئة لا تمثل شخصيتي ولا أفكاري، فكل ما أردته أن أبدو في أجمل حلة كباقي النساء، مع أني لا أفعل أي شيء مخزٍ عدا طريقة اللبس، التي كانت نوعاً ما من وجهة نظري رسالة على قدرتي بفعل ما يحلو لي وليس لشخص آخر تحكّم بي. أما في داخلي فكنتُ أعلم أنني غير مرتاحة، وكأن النظرات تنهش لحمي!
مع أني أؤدي صلواتي، وأصوم أيامي، إلا أني كنتُ

معميةً بمقولة 'الإيمان في القلب'.. على أساس الكفر أين يا ترى؟ يا لسخافتي، لم أتمعن في الأمر من قبل، فقد كنتُ مخدرة بالإعجاب من حولي. مع تفكيري المتزايد لم أنتبه إلى صوت القرآن إلا عندما أحسستُ بسكينة وطمأنينة تهز روحي.. إنها عادة أمي منذ صغري، لكن هذه المرة علمتُ أنها رسالتها لي تواسيني بالقرآن، كأنها

تقول: 'ليس لكِ أحد من غير مولاكِ'.
وأنا أتأمل حجم خيبتي بنفسي وكيف أوهمتها أن الدين انتقاء لما يناسبني، لترتفع آيةٌ رداً على حالي: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾! وقفتُ مصدومة..
مرت على مسامعي تكراراً ولكن لأول مرة أسمعها بقلبي.
لم تنزل دمعة من عيني ليس لصمود قلبي، لكن ربما نفد رصيدي من الدموع حينذاك..

كأنما القرآن خاطبني،
ووجهني، وعاتبني في آن
واحد. بعد كل هذا لا يمكن
العودة للظلمات بعدما أبصرتُ
نورا يناديني.
نادتني أمي لتقطع حبل
أفكاري، فقد حان الوقت
لنسافر. كان همها الوحيد أن
تمنحني الحياةُ فرصةً أخيرة
لأنعم بالحرية التي سلبها
القدر في رمشة عين. لم أكن
على علم كم سألبث بعيداً عن
مثواي الذي لا مفر منه،

خصوصاً ونحن في المغرب؛
ترتكب الجريمة اليوم
ويمسكونك قبل الانتهاء! وهذا
صراحة ما زاد ريبتي، فربما
اتُّهم شخص آخر وعوقب
مكاني، وهو الآن في ظلمات
السجن التي كانت من
نصيبي."

عندما عادت أمي تفاجأت ككل
الأمهات في تلك اللحظة، فقد
رأتني ولأول مرة بالحجاب!
فبعد تفتيش طويل وجدتُ

حجاباً واحداً، وفي الأصل لم أشترِه، فقد كان هدية عمرة من صديقتي.. وبهذا ستعلمون كم كنتُ غارقةً في بحر الهلاك من أجل فتنة الرجال!
دمعت عين أمي كثيراً وحضنتني، انفطر قلبي مع كل دمعة تنساب من عينيها الجميلتين اللتين من فرط جمالهما تغزل بهما الناس والأحباب، وبالرغم من أنها دموع الفرح، إلا أن الشحوب زارها لأيام.

قالت لي بعدما ساد الصمت لدقائق لا تُسمع فيها إلا دقات القلب والبكاء:
ـــــ أنا فخورة بكِ عزيزتي لأنكِ اخترتِ الصواب.. ما مر عليكِ ليس بالهين، فإما كنتِ ستختارين طريق الحق أو الضلال.
قبلتُ كلتا يديها وأنا مترددة لما سأقوله، فلا أعلم ردة فعلها تجاه ما سأقوم به.

_ أمي، أنا آسفة، فلن أستطيع أن أهرب من أفعالي!
قاطعتني بارتباك:
ـــ لكنه ليس هروباً!
ثم أضافت بلغتنا:
ـــ 'خليني غير نشبع منك أميمتي'..
وقعت كلماتها كسهام على قلبٍ جريح زادته ألماً فوق ألم، من عمقه تكاد تسمع الأنين، لكني لن أقدر على احتمال ما أعيشه من تأنيب الضمير.
ثم قلتُ بحجة ستقنعها بلا شك:
ـــ ألم تخبريني أن الروح عزيزة؟ فروحه تلاحقني، تتأسف

مني مرة وتعذبني عدة مرات.. سأتجه الآن إلى الشرطة وأنا كلي يقين أن الله لن يتركني في كربتي رغم انغماسي في ملذات الدنيا وأيام النعيم. أصررتُ على بقاء أمي في المنزل، فلن أكسرها مرة أخرى برؤيتها لي في ذلك المكان. خرجتُ من البيت كأني تركتُ روحي هناك، وجسدي جثمانٌ أنكر حقيقة الوفاة! لم أحمل شيئاً سوى حقيبتي، ولانشغال بالي لا أعلم ماذا بحوزتي.. أخذتُ وقتاً طويلاً ليس لبعد المسافة، لكني أقسم لكم أني تهتُ عدة مرات بالرغم من أني أعرف الطريق؛

فهذه هي نتيجة غدر الزمن، تصبح مجرد فتاتٍ تهوي في الزمان والمكان.
وصلتُ أخيراً.. وعندما رأيتُ ذلك المنظر بصراحة ترددتُ كثيراً، حتم عقلي عليّ الهروب: هروب من فعلتي، من أمي، وحتى من نفسي! لكن حتى الهروب بات صعباً عليّ، فجسدي مثقل بالآلام. مرت قرابة نصف ساعة وأنا في مكاني، كأني أنعم بدقائق الحرية قبل الإعدام.. لم أوكل محامياً، فقد وكلتُ أمري لله الواحد الجبار بعد ترتيب لما سأخبرهم به وتخيلي لألف سيناريو دخلتُ للمركز،

جلستُ كأنهم سيعرفون وحدهم ماذا أريد، وأنا في داخلي أريد فقط أن يطول الزمن وأن أعود أدراجي.. وددتُ لو كانت أمي معي، لربما كان الأمر أيسر! نزلت دمعة من عيني، وجسمي كله يرتعش كأنه سيودعني بعد ثوانٍ."

أقبل عليّ رجل شرطة وسألني:

— هل كل شيء بخير؟

انقعد لساني وتخلت عني جميع الكلمات! نظرتُ إليه وحسبتُ أن عيوني كفيلة لإخباره بما حدث،كما فعلت مع أمي، فليت الجميع كأمهاتنا! لازمتُ الصمت

عندما كرر السؤال، ثم أردف قائلاً:
ـــ هل لي ببطاقتكِ الوطنية؟
باشرتُ بالبحث عنها فلم أجدها، ثم تذكرتُ أنها مصورة على هاتفي، فقد كنتُ أحتاجها كثيراً ولا أحملها معي لذا صورتها. أخذتُ هاتفي وكان مغلقاً، دعوتُ الله ألا يكون الشحن قد نفد، فمنذ ذلك اليوم لم أُلقِ له بالاً.. وعندما اشتغل أخيراً صُعِقت! فكل ما أردته بطاقتي الوطنية لأتفاجأ ببراءتي ودليلي أمامي!
لقد كانت رسالة من أنس.. أو بالأحرى مكالمات ورسائل عديدة!

ذهبت عيني مباشرة للتاريخ؛
وفعلاً كانت بعد ذلك اليوم
المشؤوم! ألجمتني الصدمة
وشُلّت أطرافي.. هل يعقل؟ كان
الجواب على أسئلتي بجانبي طوال
الوقت!
ومن هول ما مررتُ به أصبتُ
بغباء.. غباءٍ أعماني عن كشف
الحقيقة عوض المخاطرة بحياتي.
اختلجت المشاعر في صدري،
لكني لمحتُ صوتاً واحداً يردد في
أعماقي: 'أمي'.. صفعتني تلك
الكلمة وكانت كفيلة لإعادة وعيي
وإبصار ما حولي! اغتنمتُ فرصة
انشغال رجل الشرطة وانسحبتُ

من خطة القدر التي كُتبت بدم إجحافي."
عدتُ أدراجي، كنتُ أسير ومن خفتي كأن قدمَيّ لا تلمسان الأرض من شدة سرعتي أو لهفتي لملاقاة أمي! صعدتُ الدرج ثم فتحتُ باب الشقة، علمتُ أني سأفزعها لكن الخبر سيرمم كل شيء..
دخلتُ فلم أرَها في الصالة، رددتُ بصوت خافت:
ـــ أمي، أين أنتِ؟ لقد عدتُ.. لن تصدقي ما حصل، كله بفضل دعواتكِ!

فتشتُ عنها في غرفتها فلم أجدها.. خطرت في بالي لربما لحقت بي، وقبل أن أخرج لمحتُ عباءتها معلقة، إذن لا زالت في البيت! تسارعت أنفاسي واستولت عليّ أفكار زادت من خوفي، ركضتُ إلى غرفتي والحمد لله وجدتها! لقد كانت تصلي ساجدة في خشوع.. جلستُ بجانبها حتى تكمل وقلتُ:

ـــ لقد تُقُبِّل دعاؤكِ، إن الله لا يرد عبداً ضعيفاً لا حول له ولا قوة.. لكن يا للعجب! من شدة خشوع أمي لم تلتفت لوجودي.. غريب! انتظرتُ دقيقة أخرى ثم ثلاثاً

والوقت يمضي وقلبي يهوي من شدة الفزع! لم أقو على لمسها، خفتُ أن يكون ما أفكر فيه صحيحاً.. لا يعقل!

حضنتُ نفسي كطفل صغير غابت أمه وهو يبكي، لا يعي هل له بلقاء آخر أم أن الوقت بخل عليه بحضن أخير قبل الوداع.. وداع الروح التي ذهبت معها، فلا حياة بعد فراق أمي! وداع الأمل وهنيئاً للألم الذي انتصر.. بكيتُ دموعاً لشدتها من عروقٍ انتُشِلَت! تماسكتُ، مسحتُ دموعي، جمعتُ قواي وتفقدتُ نبضها.. كانت يداي

ترتجفان حتى أنني لم أستطع سماع نبضها من كثرة ما قلبي يرتعد، كلما وضعتُ أذني عليها سمعتُ دقات قلبي كأنهما نبضٌ واحد! اتصلتُ بالإسعاف ودعوتُ الله أن يبقيها على قيد الحياة..
أعلم أن الله يبعث الابتلاء لجنوده الأقوياء، لكن حربي هذه خاسرة من البداية لا أستطيع حتى مجاراتها، فالله وحده يعلم من هي أمي بالنسبة لي.. جردتني الحياة من أبي وعائلتي، تحملتُ ذلك، لكن أمي في ضفة أخرى لن أتحمل فراقها!

قبل أن تأتي الإسعاف بقيتُ في أحضانها، تأملتُ ملامحها ونقوش الزمن التي زينت وجهها فزادتها وقاراً ونوراً، كنتُ أردد وأنا أبكي بكلمات تكاد تُسمَعُ آلامها من شدة البكاء:

ـــ أمي، هل طاوعكِ قلبكِ أن تتركي ابنتكِ؟ أَمَا عدتِ تخافين عليّ من ظلمة الليل وغدر الناس؟ فكيف تتركينني لأكمل الطريق وحدي؟

جاءت الإسعاف ونقلوها إلى المستشفى، وبعدما تفقدوا نبضها أخبروني أنه لا يزال قلبها ينبض لكن نبضاتها ضعيفة جداً.. أجروا

الفحوصات اللازمة وبعد طول انتظار، أخبرني الدكتور أن أمي تعرضت لسكتة قلبية، وبمعجزة عاد نبضها، لكن هناك مضاعفات نتيجة انقطاع الأكسجين عن الدماغ؛ فالعقل هنا الأكثر تأثراً نظراً لطول المدة الزمنية مما أدى لإتلاف الخلايا الدماغية، وللأسف لم يكن هناك تدخل إسعافي في الوقت المناسب.. دخلت في غيبوبة!

كانت كلماته كسيف حاد مر مراراً على عنقي دون قتلي! أُغمي عليّ في تلك اللحظة، وكل ما تذكرته صوت امرأة تردد:

ـــــالله يكون معاها مسكينة، الله يصبرها بنيتي باقة صغيرة'... نحن لا نخاف الموت، بل نخشى أن يمس أحباءنا.. نحن لا نخاف الوحدة، بل نخشى الجلوس مع أنفسنا دون ستار.. نهاب ضعفنا، زلاتنا، وندمنا على ما فات.. نحن لا نخاف الحياة، بل نخشى العيش دون ملاذ.

كنتُ أخاف أن أبقى وحدي، ليس في عتمة الليل أو وسط الظلام، بل أن أكمل الطريق وحدي؛

فالمشوار طويل والإنسان بطبعه ضعيف، وأنا لا زلتُ صغيرة، فكيف النجاة وسط الحريق؟ بربكم

أخبروني، كيف النجاة من نارٍ
تتغذى على أحشائي، تتراقصٍ
فوق جثماني منتعشةً، ملتهبةً،
ومتعطشةً لتنهب أوصالي؟
أنا التي رحبتُ بالحياة فأفرشتُ
لها ورداً، ضلّت الطريق فأبكتني
دمعاً.. أنا التي دوّن الشاعر من
قصتي أبياتاً وقصائد.. أنا الكاتبة
والقاصة، فِلِمَ خانتني حروفي
وتلاشت كلماتي؟"
بعد إغماءٍ فتحتُ عينيّ وأنا
أتساءل أين أوجد، لم أستوعب ما
الذي حل بي، حتى أني نسيتُ من
أنا في الدقائق الأولى، لكن أول ما
فعلتُه هو تفقد حجابي فوجدته

بجانبي، كأنه الحقيقة الوحيدة
التي نُقِشت في ذاكرتي.
مرت عليّ الممرضة وطمأنتني تم
أخبرتني بما حدث لي، لأتذكر
حينها كل شيء! انتزعتُ ذلك
'المصل'، ذلك السائل الذي يعلَّق
في الكيس ويمر عبر الإبرة،
وتوجهتُ لأبحث عن أمي..
أوقفتني الممرضة معاتبة:
ـــ آنسة، صحتكِ ليست بخير، لا
زلتِ بحاجة إلى الراحة قليلاً، فقد
أجهدتِ نفسكِ كثيراً!
ناولتني مهدئاً، وقبل أن تغادر
أردفت قائلة:

ـــــ هناك كدمات على يديكِ، هل لي أن أعرف السبب؟
لازمتُ الصمت، فقد باغتتني بسؤالها، وقبل أن تنصرف قالت لي بصوت يبعث الطمأنينة:
ـــــ عندما ترتاحين قليلاً يمكنكِ التحدث مع الشرطة، أو معي إن كان أريح لكِ.
أومأتُ برأسي إيجاباً ولساني مثقل، أردتُ فقط أن أسألها عن حال أمي، فإن أفاقت ولم تجدني سيزداد الوضع سوءاً!
مرت قرابة الثلاث ساعات على وضعي، وعندما أفقتُ فوجئتُ بقاتلي ومغتَصِبي أمامي! كان

ممسكاً بيدي ويبكي بحرقة،
وعندما لمحني قد أفقتُ انكب عليّ
معتذراً عما فات، وتحمَّل
مسؤولية كل شيء.. هكذا كما
قال!
كنتُ آنذاك لا أزال في الصدمة،
ومن هول الفاجعة خُدّرتُ من
جديد وشُلّت أطرافي.. لحظة! إنني
فعلاً لا أقوى على تحريك نصفي!
حاولتُ لكنه لم يستجب، حتى
انتبه أنس للأمر ونادى على
الطبيب بسرعة، وأنا لا أزال غير
مصدقة سرعة الأحداث وثورانها
ضدي."

جاء الطبيب والممرضة، وأخرجت الممرضة أنس رغم إصراره على البقاء.. كان شيءٌ بداخلي ارتاح لأنه لم يعد موجوداً، لكن طرفاً آخر أراد بقاءه، فهو الوحيد الذي يحمل جواب أسئلتي!
تأملني قبل خروجه وهو يبكي، وظل يردد:
ـــ أنا آسف يا سجى، كله بسببي..
تأملتُ حاله؛ لم يكن الشخص الذي عرفته يوماً، فقد انتقم منه القدر قليلاً كما فعل معي! عيناه متورمتان من شدة البكاء، وضمادته لا زالت على رأسه

كاشفةً شجاراً مرّ، وحالته
المزرية كأنه هو من اغْتُصِب
وليس من أقدم على الأمر!"
كان الشلل آنذاك مجرد ردة فعل
من جسمي على ما أمرّ به.. وقف
الطبيب بعد الفحوصات وشرح لي
الأمر ووبخني في آن واحد،
وكانت كلماته تمر على مسامعي
كصدى بعيد، ألتقط كلمة وتفر
عشرة! أما عيناي فكأنما عنكبوت
مرّ فترك شبكة تحجب عني
الرؤية. بدأتُ بعد ذلك أحس
بأطرافي بعد مجاهدة كبيرة كأن
غراءً أُلصِق بي، وظل لساني
يردد: 'يا ربي تكون معايا'، كأنما

جسدي هو الذي يطلب اللطف،
فهو يعلم أن لا طاقة لي!
ـــ سجى.. سجى..
ظَل اسمي يتردد في أحلامي كي
أستوعب أن واقعي ينادينـي!
فتحتُ عينيّ فإذا بي أتفاجأ برجل
الشرطة أمامي.. أردف برسمية
ممزوجة بليونة نظراً للوضع الذي
يجبر عدوي على سماحي:
ـــ لقد أخبرني الطبيب بأن حالتكِ
الآن مستقرة، سآخذ من وقتكِ
دقائق.
أومأتُ بالإيجاب، فأكمل:
ـــ لقد أثارت انتباه الممرضة
كدماتٌ عليكِ، فاتصلت بالشرطة

للاطمئنان.. هل تلك الكدمات أثر شجار، أم إشارة لمحاولة إغت... كما أخبرتنا الممرضة؟
كان سؤاله كزر أثارت مواجعي وضغط على جراحي التي لم تلتئم بعد، فأجبتُه:
ـــ لا، ليس هناك شيء.. تعرضتُ للإغماء كثيراً مؤخراً نظراً لتدهور صحتي كما تلاحظ، وتلك الكدمات ما هي إلا نتائج سقوطي المتكرر!

أراد أن يطيح بي بسؤال آخر، لكنني أردفتُ مسرعة:

ـــــ شكراً لمجيئك، لكنني أعتذر فأنا بحاجة للراحة قليلاً.
غادر دون كلام وظل الصراع في رأسي: هل الذي فعلتُه صواب؟ لِمَ لم أبلغ عنه؟ فهكذا سأصبح محمية أكثر على الأقل، وسآخذ حقي! لكن بداخلي صوت يؤيدني على فعلي ذاك، فكل ما يريده ذلك الصوت سلامٌ وهدوء..
ترجلتُ من مكاني وذهبتُ كي أسأل عن أمي، كنتُ أبحث بين الممرات: نصفٌ يبحث عنها ونصفٌ خائف من لقاء عدوي.

لمحتُ غرفتها، دخلتُ مسرعة كأنها ستستقبلني بعناق على ما مرّ بي، لكن صُعِقتُ بها ممددة بلا حراك.. كان النور يحاط بها كأنه يحميها في غيبوبتها. فرّت دموعي ولم أقو على كبحها مهما تظاهرتُ بالقوة، فذلك المنظر يهدم جبلاً واقفاً، فما بالكِ بطفلة يتيمة؟
كنتُ على وشك الدخول والارتماء في حضنها، لولا أن سحبتني الممرضة التي لم أنتبه لوجودها من البداية.. قست عليّ الحياة كثيراً وحرمتني حتى من عناق أمي! تساءلتُ: هل هو انتقام أم

ابتلاء أم نهاية طريقي فجعله الله ثقيلاً عليّ لمغفرة ذنوبي؟
وقفتُ في الممر أنتظر خبراً من الطبيب حتى استوعبتُ أني لا زلتُ بملابس الفحوصات.. عدتُ للغرفة كي أغيرها، ولمحتُ ورقة بيضاء تطل عليّ من حقيبتي! أخذتها لعلها فاتورة أو ما شابه، هذا ما أخبرني به عقلي كي أهدأ من أمري.. كانت أسطراً قصيرة كُتِب فيها:
'ظننتُني عاشقاً وحبيباً لكِ، لكن كل ما كنتُه مجرد وحش لم يستطع كبح نفسه.. أعلم أنكِ لن تصدقينني لكني خفتُ أن تكوني

لغيري فأقدمتُ على فعلٍ هدم عمري. أحببتُكِ وسأظل أحبكِ، لذلك لن تريني مرة أخرى.. أنا آسف.'

رسالة بأسطر قليلة لكن واقعها قوي على قلبي! أحسستُ بالطمأنينة كأن بابا من الأحزان لم يُقفل وإنما هُدِم ولم يعد له وجود.. حمدتُ الله على رحيله، فبقائه كانت ستقتلني أكثر!

توضأتُ وصليتُ ركعتين؛ فهما كل ما في وسعي أن أفعله أمام هذه الصعوبات، ثم ذهبتُ لأبحث عن الطبيب مرة أخرى.. أخبروني أنه خرج قبل قليل لذا يجب عليّ أن

أنتظره، فظللتُ في ذلك الممر والبرد يحيطني، لا أعلم إن كان الجو بارداً أم أن البرد نابع من أعماقي التي تجمدت إثر أحداثي.
مرت لحظات ولحسن حظي أتى الطبيب مبكراً.. سألته عن الجديد في حالة أمي، وقبل أن أكمل سؤالي وبخني على صحتي مرة أخرى قائلاً:
ـــ أعلم تماماً ما تمرين به، لكن ليس من الجيد لكِ السهر طوال الليل بدون نوم.
تعجبتُ، فقد ظننتُ أنها مجرد لحظات.. يا للعجب، غريبة هي الحياة! صح القول ممن أخبرنا أن

الدنيا دوّارة؛ فبين ليلة وضحاها انقلبت حياتي، وسارت سفينتي بما لا تهوى نفسي، وحطت على دربٍ مظلمٍ سلبني عمري!
أردف الطبيب قائلاً:
ـــ أمكِ بحاجة لكِ، قاومي أكثر..
كلمة واحدة كانت كفيلة بإفاقتي من دور الضحية!
وسط ضجيج الحديث مع نفسي دخل الطبيب لإجراء بعض الفحوصات اللازمة، وفي تلك اللحظة أخذتُ الهاتف لأتفحص الرسائل والإشعارات الجديدة..
أعلم جيداً أن عائلتي لن تنسانا في هذه الأوقات الصعبة؛ فقد أخبرتهم

بما حدث ـــ طبعاً فقط الجزء المتعلق بأمي، أما سري فبيني وبين نفسي ـــ ولم تمر إلا ساعتان بالضبط لأجدني محاطة بهم!
تعالت أصواتهم بين صيحات وتساؤلات، وأردتُ إخبارهم بما حصل لكن لا طريق لصوتي وسط كلامهم! وبعدما استوعبوا الأمر أخيراً ـــ والحمد لله أنهم فعلوا ذلك قبل أن أفقد ما تبقى لي من صواب ـــ أخبرتهم أنها في غيبوبة قد تدوم أياماً، شهوراً، أو حتى أعواماً، فكل ما يجب فعله الآن حسب ما قال الطبيب هو

الدعاء لها، أما الدواء فلا قيمة له الآن..
عاد الصراخ من جديد كأني أعلنتُ موتها قبل قليل، ولولا إيماني القوي لكنتُ أول المعزين، فليس من السهل أن أخبرهم بما لا أقوى حتى على استيعابه!
وسط تلك الحشود التي كان يطلب منهم كل من مرّ خفضَ أصواتهم، لم يعد الأمر صراخاً أو بكاءً كما كان، بل تجمعات وأحياناً ضحكات! استغربتُ من الوضع، لكنها الدنيا.. فما دمتَ فيها لا تستغرب."

مرّ شهرٌ على حالة أمي، وللأسف ليس هناك جديد بخصوصها.. عاد أفراد العائلة الذين كانوا يملأون ممر المستشفى بالانسحاب واحداً تلو الآخر، كأنهم دفنوا جثمانها هنا، فنهايتها وشيكة لا محالة حسب قولهم! أما أنا فلا أأبه بهذه الأقاويل التي بالنسبة لي تافهة، فحتى لو بقي عرقٌ واحد ينبض لتشبثتُ بالأمل من أجلها، فأنا أعلم أن الله لن يرد دعواتي.

مرّ شهرٌ آخر.. أما الآن فقد مرّ بالضبط 364 يوماً و18 ساعة!

تجمدت حياتي، أحلامي وطموحاتي.. وإن تساءلتم من أين

أجلب معاشي ومصاريفي؛ فقد قمتُ بكراء المنزل، أما أنا فاتخذتُ المرآب مسكناً لي!
مرت الأيامُ أعواماً عندي، وللعجب لم تذرف عيني دمعة واحدة.. لا أعلم إن كنتُ أصبحتُ أقوى أم نفد رصيدي من الدموع!
عدتُ بعد تفقد أمي اليوم، فطوال هذه الأيام كنتُ أقضي قرابة اليوم معها؛ أشكو لها، وأحدثها عن الجديد بالرغم من أن الجديد دائماً محزن، فالسعادة شقّت طريقاً بعيداً وأضلّت أدراجي.
كان يوماً شاقاً، دخلتُ الفراش مباشرة بعد تغيير ملابسي، وبعد

وقت ليس بطويل سمعتُ الباب
يُطرق! فزعتُ آنذاك، فليس هناك
من يأتي من أجلي.. زادت
الطرقات ونبضات قلبي في آن
واحد، ثم فجأة سمعتُ اسمي
يتردد بصوت مألوف يحمل من
الطمأنينة ما يحمل.. نعم، أمي!
إنها أمي!
ركضتُ لأفتح الباب فإذا بنورٍ
يحجب عني الرؤية، وقبل أن
تتضح الرؤية أفقتُ من حلمٍ.. وكم
تمنيتُ أن يكون واقعي!
انهمرت دموعي كأنما تواسيني
على قساوة قدري، ووسط شرود
ذهني أفزعني هاتفي! كانت

الساعة تقارب الثانية عشرة منتصف الليل.. زادت نبضاتي مرة أخرى كأنما قلبي سيودع أضلعي.. لقد كان المتصلُ المستشفى!"
ترددتُ لحظة، وقبل أن ييأس المتصل أجبتُ.. لم أقوَ على الكلام، كنتُ مستسلمةً لما ستسمعه أذناي على الطرف الآخر. كان صوتاً أنثوياً:
ـــ هل معي الآنسة سجى؟ يجب عليكِ زيارة المستشفى الآن وبسرعة!

من هول الصدمة لم أسأل عن السبب، إنما عقلي تكفل بالأمر وأنتج سيناريوهاته التي بالطبع لا تبشر بالخير! كان منتصف الليل، ومن النادر إيجاد سيارة أجرة، لذلك طلبتُ من جارتي إيصالي للمستشفى.
دخلتُ وكلي أرتجف، كل ما أوده طبيبٌ أسأله، ومن تسارع الأحداث لم تخطر ببالي فكرة أن أتفقد غرفة أمي.. ظننتُ أنه لو أخبرني شخصٌ ما بما حدث سيكون الأمر أهون من أن أراه بعيني!

أتى الطبيب مسرعاً فور أن رآني، كانت ملامحه محايدة، وددتُ أن أقرأ الخبر في عينيه، أي شيء يطفئ غليل النار المشتعلة بداخلي.. نظر مطولاً في عيني ولوهلة .. هدأ قلبي كأن المطاردة انتهت!

الوقتُ تجمد وأعلن عن الفائز:

ـــ حمداً لله على سلامتها.. لقد أفاقت أمكِ!

لم أسمع ما قيل بعد هذه الجملة من غير صفيرٍ دوى في أذنيّ، وظلت كلمة 'أفاقت أمكِ' تتردد بصدى؛ فكم طال انتظار هذا

الخبر! بعد 365 يوماً بالضبط، أفاقت أمي!
كنتُ أركض في الممر بفمٍ مفتوح وأعينٍ مليئة بالدموع، وإذا بي أرى أمي.. كأن يوماً واحداً فقط مرّ على فراقنا! ارتميتُ في حضنها، وفور أن نطقت بكلمة 'ابنتي' زادت شدة بكائي.. تمعنتُها طويلاً، قبلتُها، خفتُ أن أكون كياناً التقى والديه في منامٍ طويل ليستفيق بعد ذلك فيجد نفسه وحيداً مجدداً."
ربما لو كانت الحياة عادلة لما ذرف اليتيم دمعة، فنصيبه من حزنه أخذه دفعة واحدة في يتمه..

أو ربما لو كان أبي معي لما
صرتُ كاتبة؛ فكلماتي وعباراتي
تتغذى على حزنٍ دفين لا أقوى
على طرده!
الآن لم تتراقص النيران فوق
جثماني، بل أنا التي انتشيتُ فوق
نار فراقي.. فراقي مني ومن هول
الأحداث! فررتُ من حريقٍ مهول،
كلما ركضتُ لحقتي.. أخذتُ
أنفاسي لأقف، فأكتشف أن
الحريق بداخلي لن يزول ما دمتُ
أنا في أيامي!
أنا التي روّضتُ الهمّ على
مرافقتي، وأفرشتُ الورد لياليا
خشية أن يفلت الحزنُ آثاري..

كنتُ القاتل والمقتول في روايةٍ من نسج خيالي! كنتُ المجرم والضحية في مسرح جريمةٍ من إعدادي! سترت الأدلة بنفسي وها أنا أفتش عنها في الأرجاء.. أنا الصائد والفريسة في آنٍ، أركض مني وإليّ أناجي، راجيةً حسم الأمر، فلا أقوى على المجاراة!

أنا المغتصبةُ بين يدي العدل،
تُرشّ دمائي من جسدي، وعلى
روحي أقرأ الوداع..

ليست نهاية قصتي الآن، إنما بداية لحياةٍ دون معاناة.. ولأني قارئة أعلم أن السعادة والفرح لن تغريا قارئاً على إكمالها؛ فاليوم أودعكم بأحر التعازي على نفسي القديمة التي عانت من غدر الزمن والرجال!
دفعتُ جسدي وصحتي فديةً لأكمل مشواري، فحمداً لله على ما فات، وما أتمناه اليوم إلا جرعةٌ من النسيان..

بالرغم من أني أعيش اليوم أفضل أيام حياتي؛ استرجعتُ منزلي،

وضحكة أمي، ووظيفة العمر..
وهذا كل ما أتمناه!
أما أنت ،سامحتُك أمام القانون،
لكن لو كان بينك وبين الجنة ذنبي
ما غفرتُه لك!

النـهايـة.